

الحجاج بمفهوم المنزلة عند سيبويه

(مقاربة تشييدية بين الغرض العلمي والتعليمي)

Argumentation from al-mu'atazleh's point of view understood by
sibaweh
(a structural approach between scientific and pedagogical purposes)

أ.م.د. رجاء عجيل الحسناوي^(١)

Ass. Prof. Dr. Rajah Ajeel

ملخص البحث:

ما زال سيبويه يمدنا بفكره الرصيد وتأمله العميق بمسارات دقيقة نعمل بها على إعادة فهمنا له، وفهمنا للكيفية التي تحلل بها أنماط الاستعمال اللغوي، وقد وجدنا أن محوراً من محاوره المهمة في التحليل النحوي كان استعماله للفظ المنزلة وهو يحاول أن يقدم تصوّره أو تصوّر أستاذه الخليل في هذا الموضوع أو ذاك من كلام العرب. ولقد كان تردد هذه اللفظة من الكثرة بمكان أن يلفت الانتباه، فعمدنا إلى تخصيص بحث مستقل للكشف عن المفهوم السيبويهي الذي أراد فيه ليحملها رؤيته التحليلية للكلام ومكوناته الصغرى. وقد وجدنا أن مفهوم هذه اللفظة قد اقترن بمسار حجاجي قدمه سيبويه بين يدي متلقيه في إثبات حجته وراجحة ما انتحاه. وقد استقرّ تناول موضوع بحثنا على ثلاثة مباحث:

الأول: الأساس الأصولي (المعرفي) في استعمال المنزلة.

الثاني: (المنزلة والتمثيل) قياس في الافتراض الدلالي للكلام ومكوناته.

الثالث: الأساس التداولي في استعمال المنزلة.

١ - جامعة كربلاء/كلية التربية للعلوم الانسانية

وجرى تقسيم ما اخترناه من موارد استعمال المنزلة على هذه المباحث طبقاً للمفهوم الذي يمكن فهمه من هذه اللفظة.

ديباجة البحث.

شيء لا يغفل عن ذكره...

((لا يؤلف أحد كتاباً إلّا في أقسام سبعة لا يمكن التأليف في غيرها، وهي إمّا أن يؤلف في شيء لم يسبق إليه فيخترعه، أو شيء ناقص يتممه، أو شيء مستغلق يشرحه، أو طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه، أو شيء مختلط فيرتبه، أو شيء أخطأ فيه مصنفه يُبينه، أو شيء مفرق يجمعه))^(١). وحسبنا المفرق لنجمه فالمعاني المقنعة قد تكون ممتعة إذا توشحت بالخييل والتصوير والمعاني الممتعة قد تكون مقنعة إذا استنبطت بقوة الفكرة وثاقب النظرة، فهذا تفسيرنا للمنزلة، ولنستمد من جمع قراءتنا قراءة سيبويه لها.

مهاده:

تنضوي تحت أساس البحث العلمي حقيقة مفادها، أنه لا علم إلّا بالبرهان، ولا برهان إلّا بالانبناء على مقدمات ومبادئ ضرورية. ويمكن الكشف عن ذلك بوضوح في معالجة سيبويه بناء كتابه بوسائل وآليات عملت على توليد المعرفة وإنتاجها، بإقامة الدليل بطريقة منهجية سليمة يمكن أن نصفها بالانبنائية الأمر الذي دفع للكشف عن النظر في بناء نصوصه بما فيها من معارف مختلفة، ومضامين متنوعة.

إن رصدنا بنية نصوص الكتاب جعلتنا نستوحي صوراً خاصة منه لتقديم مختلف المعلومات التي تُحدد العلاقات الاستدلالية.^(٢) بين التراكيب بوصف (آلية الاستدلال) نسقاً منطقياً تداولياً يُبنى بها الخطاب الطبيعي من حيث إن الاستدلال ((انجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، أي متواليات من الأقوال والجمل بعضها بمثابة الحجج وبعضها الآخر بمثابة النتائج التي تُستنتج منها))^(٣).

وقد سعى سيبويه إلى تحصيل الاستدلال عبر مفهوم المنزلة، ذلك المفهوم الذي يشترك فيه، علم أصول الفقه، وعلم الكلام والنحو، والبلاغة بوصفه مفهوماً تفسيريّاً^(٤)، من حيث إن هذه

٢- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ص ٥.

٣- من أمثلة العلاقات الاستدلالية علاقة الشرط، والاستلزام، والسببية، والتفسير، والقياس، والاستنتاج. ينظر الخطاب والحجاج ص ١٧.

٤- سلطة الكلام وقوة الكلمات ص ١٤٢.

٥- وظّف سيبويه هذا المفهوم في التفسير المرتكز على استدلال يتصل بعلم من علوم القرآن يُسمّى المكّي والمدني، من ذلك ما نقله عن أبي الخطاب قائلا: "وزعم أبو الخطاب أن مثله قولك للرجل: سلاماً. تريد تسليماً منك، كما قلت: براءة منك... وزعم أن هذه الآية "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً." بمنزلة ذلك، لأن الآ فيما زعم مكّي ولم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين، ولكنه على قولك براءة منكم وتسليماً لاخير بيننا وبينكم ولا شر". الكتاب ١/ ٣٢٤ - ٣٢٥، والآية الفرقان/ ٦٣.

العلوم متفاعلة فيما بينها مما يشي بالقول إن نصوص سيويه جاءت محققة لأغراضها ومؤثرة في خالفها (متعلمين وناقدين)، فالاشتغال بمثل هذه الآليات جعل نصوصه منظمة ومعللة ؛ لأنها مبنية بناءً استدلالياً معتمداً الضوابط العقلية، وأحياناً النقلية ؛ لإقامة الحجة بهدف الإقناع .

إن نزوع سيويه إلى تلك المركزية في كتابه إنما هو إحداث لتغييرات في الأفكار أو توجيهها على نحو صحيح ويستتبط من ذلك ، أن الوصول إلى إثبات صدق قضية أو تنفيذها في برهنة جدلية هو ما ينماز به الاستدلال الحجاجي ، بحيث تفضي المقدمة إلى النتائج وتخدم النتائج المقدمة ، وهذه الطريقة التي اتبعها سيويه تنم عن أن يكون الإقناع هدفاً وسيلته (المنزلة) ، وأن امتلاك الإقناع لحد (هو) حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده^(٦) . يُعمق وصف المنزلة أنها فعل متعدد الصور يسعى لإحداث تأثير، أو تغيير، إما بفعل، أو ترك، ويوجب أن يمتلك المقنع كفاية تواصلية واقناعية تتميز هذه الكفاءة بمهارات هي :

١. مهارة التحليل والابتكار.

٢. مهارة العرض المنظم للأفكار.

٣. مهارة فهم دوافع تساؤلات واعتراضات المتلقي.

إن الإيماء إلى هذه المهارات ليس من باب التصنيف ، بقدر ما هي إطار لم يفت سيويه اتخاذ هيكلاً يبني عليه حججه على وفق مرجعية ثقافية سائدة ومشتركة بينه وبين متلقيه بعيداً عن المغالطات الوصفية.

إننا ههنا لا نرجل القول بنجاح سيويه في الإقناع المرتد إلى الاستدلال ، بقدر ما تكفلت به رؤيته في تحديد ذلك الإقناع المرتكز على وسيلة تصريفية لغاياته وهي (المنزلة).^(٧) ويفهم من ذلك أنه اعتمد أسساً لبيانها يراها المتمعن في :

٦- منهاج البلغاء ص ٢٠.

٧- مثلت المنزلة عند سيويه قانون الاستقراء اللغوي مما مهد لظهور القياس المنطقي بعد ذلك، يتضح هذا الأمر عبر إحصاء موارد ذكرها إذ ورد ذكرها (١٧٩٧) مرة في الكتاب :

- في الجزء الأول ذكرت (٥٩٤) مرة.

- في الجزء الثاني ذكرت (٦٩٩) مرة.

- في الجزء الثالث ذكرت (٤٨٦) مرة.

- في الجزء الرابع ذكرت (١٨) مرة. وهذا العدد قليل بإزاء الأجزاء الأولى ، مما يقودنا إلى القول بظن منا أن الإحاطة بدلالاتها قد تبينت سلفاً، فلم يحتج إلى التكرار ، فتجنب بها الإعادة ؛ لأنها وسيلته في الإحالة على مواضع متقدمة. هذا من جانب ومن جانب آخر أنه تعامل في الأجزاء الأولى مع التراكم فلها دلالات تحتاج معها إلى تمثيل ، أو عرض مشابهة ، أو مساواة ، أو نفي تلك المساواة مما تطلب معه الكثرة في استعمالها لحاجة التحليل ، أو التعليل ، أو الإيضاح . وننوه إلى أن استعمال هذه المفردة قد اختفى بعد سيويه عند النحاة الخالفين إلّا في إشارات قليلة ورد ذكرها ، منها إشارة ابن جني في الخصائص في حديثه عن عدم جواز تقديم المستثنى على الفعل الناصب في ٣٨٤/٢ - ٣٨٥ و ٢٤٩/١ ، وإشارة ابن هشام في حديثه عن السين المهملة ، وكلتا الإشارتين في معنى (موضع النزول) ، أي : المكان. وإن زاد ابن هشام معنى آخر ، وهو (المشابهة) في حديثه عن (سي) في (لاسيما) ، فهو مشابه (مثل) وزنا ومعنى. ينظر المغني ٢٧٥/١ و ٢٧٦/١.

١. النصوص نفسها : من حيث إنّ لها عمقاً ومكوّنات لا يمكن أن تفهم من دون التعريف بها وتعيينها ووصفها ببيان العلاقات الممكنة فيها.

٢. المعرفة النظرية: التي تعود إلى التصورات التي يمتلكها سيوييه ، عن الوقائع الخاصة بالدلالة وسبل إنتاجها والمواد الحاملة لها ، فقراءته التحليلية إنّما جاءت معززة بالمعرفة الإنسانية من أجل وصف المعنى.

٣. ثقافة المتلقي وقدرته على استحضار مرجعيات النصوص ، سواء أكانت ثقافية أم اجتماعية ، أم تأريخية ، أم نفسية ، وقدرته على الربط بين ما هو معطى بصورة مباشرة ومعارفه الموسوعية ، والأشياء القادرة على استحضار أمور قد لا تتجلى مباشرة في ظاهر النصوص ؛ بل تسلك مسلك الظل يدركها المتلقي إدراكه لمن هي ظل له ، فهاهو يصبّ معطيات أسسه الاقناعية في تصميم نصّه في باب "حتى" إذ يقول : ((فحتى ههنا بمنزلة إذا وإنّما هي ههنا كحرف من حروف الابتداء... ويدلّك على "حتى" أنّها حرف من حروف الابتداء أنّك تقول: "حتى أنّه ليفعل ذاك" ، كما تقول: "فإذا أنّه يفعل ذاك"... ومثل ذلك: "مرض حتى يمرّ به الطائر فيرحمه"))^(٨). فقد أسفر النص السيوييهي عن استيعاب وإدراك لغوي وظّف له أداة (المنزلة) وعكست ثنائية اللغة والكلام ، فقد حدد القيمة اللغوية لـ "حتى" بتعيين سماتها التمييزية بأنّها للإبتداء منطلقاً من هذا المنظور الوصفي إلى مرتكزات خارجية يحددها النظام العرفي والتداولي للغة في المواقف الواقعية في إفادة معنى المبالغة ، فهو يتلقى الرحمة مما يمرّ به من طائر ، واستناداً إلى مبدأ ثنائية اللغة والكلام نرى أنّ لمنهجية (المنزلة) آلية حجاجية تبنّاها سيوييه في تناول الأفكار اللغوية في صياغة تداولية للإقناع أتخذت بعدين :

- الأول : بعد يعكسه المبنى.

- والآخر : بعد حوارى (بآليته التشخيص والمقام). إذا ما أخذ بالحسبان أنّ الحوار تفاعل الذوات مع محيطها الخطابي بوصفه خاصية تداولية ، للخطابات الحجاجية. يبدو أن الجامع بين البعدين هو تشبيه قول بقول آخر بينهما مشابهة لُيَبّن أحدهما الآخر ، ويصوّره في برهانية تترك أثرها في المتلقي بتغيير المنظور الأول ، واستحداث منظور جديد غير أنّ المشابهة في المنزلة ههنا تعلو قيمتها على مفهومها المستهلك بين أشياء ما كان لها أن تكون مترابطة أبداً ، ومن ثمّ عدت عاملاً أساسياً في عملية الإبداع باستعمال سيوييه لها حجاجاً مقارنياً ، إمّا عن طريق عرض معادلة صورية خالصة ، وإمّا عن طريق الانطلاق من التجربة بهدف إفهام الفكرة سعياً لأن تكون الفكرة مقبولة بنقلها من مجال إلى مجال مغاير.

فالمنزلة جمعت بين التأثير النظري ، والتأثير السلوكي العملي ، وهي رؤية جديدة بالفعل فكان الاستدلال الحجاجي بها إنجازاً لعملين ، عمل التصريح بالحجة من جهة ، وعمل الاستنتاج من

جهة أخرى ، انطلاقاً من محاولة إثبات وجود شيء معين عبر النموذج الثنائي المتضاد (بمنزلة - ليس بمنزلة). ذلك أن معنى الإثبات يقتضي مثبتاً ومثبتاً له وكذا حال النفي إذ يقتضي منفيّاً ومنفيّاً عنه ، ومن ثمة يكون هناك إثبات عدم وجود ذلك الشيء المنفي ، ففي كلتا الحالتين يقع الإثبات ، وهو ما دعاه إلى أن يظلّ مخلصاً لطريقته الخاصة في البحث عن إجابات ، لا تلبث أن تثمر هي الأخرى عن تساؤلات جديدة بطرق منهجية ، بما أكسب بحثه اللغوي توجهات فكرية تحاول قراءتنا للمنزلة أن تكشف عن العقل الكامن وراء النظام.

ويظهر أن سيبويه قد أقام المنزلة في ظل أن تكون في صلب الجهاز التواصلية لإدراك الكلام وإقامة الحجج .

المبحث الأول: الأساس الأصولي (المعرفي) في استعمال المنزلة.

ونعني به البعد الذي يبحث في اللوازم الذهنية العامة التي تتطلبها عملية إنتاج الكلام ((فمن دون تلك العمليات العقلية تفقد المكونات اللغوية قدرتها الأدائية في الاستعمال))^(٩).

إن عائدة النظام اللغوي الاجتماعية لجماعة بشرية معينة ، تؤسس عند سيبويه على افتراض أن اللغة نظاماً محكماً من الضروري اكتشافه ، وأن هذا النظام ليس ابتكاراً لشخص بعينه ، بل هو نظام للجماعة اللغوية ، فيتلاءم معيار المنزلة ههنا والمبدأ التفسيري ، ذلك المبدأ الذي يجعلنا نصنّفه حين ترتبط دلالة المنزلة به إلى :

١ - التفسير بالمنزلة للإيضاح : وهو مبني على أساس دلالي يُزيل المعنى الثاني الإبهام في المعنى الأول إلّا أنه ليس من قبيل التكرار بقدر ما هو إيضاح وإثارة للقدرّة المعرفية في المتلقي جاء في هذا باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعولين) قوله: ((وإن قلت : رأيتُ ، فأردتَ رؤية العين ، أو وجدتُ ، فأردتَ وجدان الضالة ، فهو بمنزلة ضربتُ ، ولكنك إنما تريد بوجدتُ ، علمتُ ، وبرأيتُ ذلك أيضاً ألا ترى أنه يجوز للأعمى أن يقول : رأيتُ زيداً الصالح . وقد يكون علمتُ ، بمنزلة عرفتُ ، لا تريد إلّا أعلم الأول ، فمن ذلك قوله تعالى : " وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ " ^(١٠) . وقال سبحانه : " وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَأْ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ " ^(١١) . فهي ههنا بمنزلة عرفتُ ، كما كانت رأيتُ على وجهين)) ^(١٢) . إن المقاربة بين العلم والمعرفة - عند سيبويه - ربما فرضها النمط

٩ - كليات المعرفة اللغوية عند الفلاسفة المسلمين في ضوء اللسانيات ص ٢٦ .

١٠ - البقرة / ٦٥ .

١١ - الأنفال / ٦٠ .

١٢ - الكتاب ١ / ٤٠ وأورد سيبويه زعم الخليل في بيت الأسود بن يعفر :

أحقاً بني أبناء سلمى بن جندل تهديدكم إياي وسط المجالس .

أن التهدهدها بمنزلة الرحيل بعد غد ، ينظر الكتاب ٣ / ١٣٦ .

النحوي المقتضي حدود قوة التعدي المتفاوتة في الفعلين إلّا أنّ خلفية علم الكلام لا تتوارى ههنا.^(١٣) مما يشي بالقول إنّ نزوع سيبويه نحو تفسير كلام العرب وتركيباته وآلية فهمه، لم تكن عند تخوم النظر النحوي فحسب.

٢- التفسير بالمنزلة للتعليل: وهو أن يُسوَّغ ما بعد المنزلة للمشكل قبلها، من حيث إنّ الأصل في الأحكام التعليل ونركن إلى نص سيبويه إذ يقول: ((وقد جاء من الفعل ما قد أنفذ إلى مفعول ولم يقوَ قوة غيره مما قد تعدّى إلى مفعول وذلك قولك: امتلأت ماءً وتفقت شحماً، ولا تقول: امتلأته، ولا تفقتاه ولا يعمل في غيره من المعارف، ولا يقدم المفعول فيه، فتقول: ماءً امتلأت، كما لا يقدم المفعول فيه في الصفة المشبهة، ولا في هذه الأسماء؛ لأنّها ليست كالفاعل، وذلك؛ لأنّه فعل لا يتعدّى إلى مفعول، وإنّما هو بمنزلة الانفعال لا يتعدّى إلى مفعول نحو: كسرتُه فانكسر ودفعته فاندفع))^(١٤).

إنّ للعامل قيمة كبرى جعلته يقارب بين الصفة المشبهة ومجموعة محددة من الأفعال بناءً على مشابهة شكلية في عملهما فالأفعال المذكورة في النص السيبويهي هي أفعال لا تتعدّى إلى مفعول به وهو يقرنها (بمنزلة الإنفعال). ويستقطب سيبويه مصطلح (المفعول فيه) ليدلّ على أنّ نصبها للمفعول إنّما هو نفاذ غير مباشر فهو مفعول كمفعول الملحقات بالفعل؛ لأنّها ليست كالفعل في القوة، ولعمري أنّ أبا بشر أحدث توازناً بصورة تلقائية بين علاقة العنصر والموقع والوظيفة فجاءت علاقة منتجة في إطار حجاجي محتوعلى مقدمات ظنية قابلة للمناقشة وصولاً إلى إثبات صدق القضية. إذ التعليل النحوي أمر احتمالي يقوم على الفرض ووظيفته تسوية النمط الاستعمالي للكلام يؤازر ذلك قول الخليل:

((إنّ العرب نطقن على سجيته وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإنّ لم يُنقل ذلك عنها، واعتلت أنا بما عندي أنّه علة لما اعتلته منه، فإنّ أكن أصبت العلة فهو الذي التمس، وإنّ لم تكن هناك علة له، فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم، دخل داراً محكمة البناء عجبية النظم والأقسام، وقد صحتّ عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق، أو بالبراهين الواضحة، والحجج اللائحة، فكلّما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنّما هذا هكذا، لعلة كذا وكذا، ولسبب كذا وكذا، سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك، فجاز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة، إلّا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل، محتمل أن يكون علة لذلك. فإنّ سنح لغيري علة لما اعتلته في النحو، فهو

١٣ - ذهب د. إدريس مقبول إلى أنّ مذهب سيبويه في ترادف العلم والمعرفة هو نفسه مذهب المعتزلة مستنداً على ذلك بالنص أعلاه. ينظر الأسس الاستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه ص ١٩٩ و ص ٢٠١.

١٤ - الكتاب ١/٢٠٤ - ٢٠٥ وينظر ١/٩٠ - ٩١.

أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها)).^(١٥) فبالعلل تتجلى صور الفرضيات ، ويكشف عن الظواهر ، ويمثل هذا الطرح يتبين مقدار حاجة النحو إلى هذا النهج من التفكير.

٣- التفسير بالمنزلة للتضمنين : وهو التفسير الذي يقترب مما يسمى في اللغويات الحديثة بمبدأ (الانضواء)^(١٦) . الدال على احتواء عنصر بنيوي على دلالة ضمنية ، نستقرؤه من نص سيبويه : ((تقول : لا تأتيني فتحدثني لم ترد أن تدخل الآخر فيما دخل فيه الأول فتقول : لا تأتيني ولا تحدثني ، ولكنك لما حوّلت المعنى عن ذلك تحوّل إلى الاسم كأنك قلت : ليس يكون منك إتيان فحديث ، فلما أردت ذلك استحال أن تضمّ الفعل إلى الاسم ، فأضمرُوا "أن" ؛ لأنّ "أن" مع الفعل بمنزلة الاسم ، فلما نوّوا أن يكون الأول بمنزلة قولهم : لم يكن إتيان . استحالوا أن يضمّوا الفعل إليه ، فلما أضمرُوا أن حسن ؛ لأنه مع الفعل بمنزلة الاسم)).^(١٧)

فالفعل هنا بمنزلة الاسم بقيام علاقة الاشتمال الضمني - احتوائه الحدث (الإتيان) - فقد رصد سيبويه سلوكاً متميّزاً لـ (أن) الناصبة ومعمولها الفعل ، في أنها تسلك مسلك التركيبات العبارية مما يجعلها تقع موقع الأسماء في الجملة ، بمعنى أن الحرف (أن) وصلته (الفعل) يشغل في الجملة موقع الاسم ، يدلّ على ذلك ما جاء في أحد الأبواب قوله : ((هذا باب من أبواب أن التي تكون والفعل بمنزلة المصدر . تقول : أن تأتيني خير لك . كأنك قلت : الإتيان خير لك))^(١٨) . وليس معنى ذلك أنها وصلتها بمعنى الاسم (زيد) و (عمر) ، بل أراد بها سيبويه الاسمية مفهوماً .

٤- التفسير بالمنزلة لتأصيل الأصناف : وهو أن ما بعد المنزلة يوضح السبب ، ومما يؤكد قيمة هذا الضرب من التفسير بالمنزلة ، أن سيبويه يؤصّل تصنيف الفعل عبره بالنظر إلى الحدث بوصفه صنفاً معرفياً قائماً بذاته كمن في الفعل ، يقول : ((ألا ترى أن قولك : قد ذهب بمنزلة قولك : قد كان منه ذهاب . وإذا قلت : ضرب عبدالله ، لم يستين أن المفعول زيداً أو عمرو ، ولا يدلّ على صنف ، كما أن ذهب قد دلّ على صنف ، وهو الذهاب ، وذلك قولك : ذهب عبدالله الذهاب الشديد ، وقعد قعدة سوء ، وقعد قعدتين . لما عمل في المرة منه والمرتين ، وما يكون ضرباً منه))^(١٩) .

فالحدث عند سيبويه عامل رئيس في البنية التركيبية يحيل على ذلك قوله : (عمل في المرة والمرتين) فهو يدعم هذه الفكرة بالمستويات التمثيلية ، بقوله : ((وما يكون ضرباً منه ، فمن ذلك : قعد القرفصاء واشتمل الصماء ورجع القهقري ؛ لأنه ضرب من فعله الذي أخذ منه))^(٢٠) . ويبيّن سيبويه سبب رؤيته هذه ، فالمسألة هنا تخضع لتصنيفات - وهي تصنيفات تكون في بعدها الأول

١٥ - الإيضاح في علل النحوص ٦٦ .

١٦ - يقصد بالانضواء تضمّن عنصر بنيوي دلالة ضمنية ثانية ، ينظر مدخل إلى علم اللغة (تود) ص ٩٦ ، واللسانيات والبيداغوجيا ص ١٤١ وص ١٧٢ وعلم المعاني (عتيق) ص ١٤٠ .

١٧ - الكتاب ٢٨/٣ .

١٨ - الكتاب ١٥٣/٣ .

١٩ - الكتاب ٣٤/١ - ٣٥ .

٢٠ - الكتاب ٣٥/١ .

محاكية لحركة الفعل وقد تمتد لما هو أبعد من ذلك - ذات بُعد احيالي مباشر ومرتبطة بقيم التركيب والترابط الحاصل بين أجزاء هذا التركيب فالفعل عند سيبويه أخذ ((من لفظ أحداث الأسماء))^(٢١) فالذهاب في (ذهب) حالة تمثيلية خاصة بالفعل بأسبقية متصورة.

ويتوغل سيبويه في أبعاد هذا التفسير ضمن نص آخر قائلاً: ((الأتري أنك إذا قلت: ضارب رجلاً، أو مأخوذ بك، وأنت تبتدئ الكلام احتجت ههنا إلى الخبر، كما احتجت إليه في قولك: زيد وضارب، ومنك بمنزلة شيء من الاسم في أنه لم يسند إلى مسند وصار كمال الاسم، كما أن المضاف إليه منتهى الاسم وكماله))^(٢٢).

فسيبويه ههنا يظهر قضية مهمة جداً، وهي أقل ما يتألف منه الكلام بحثاً عن نواته التي هي عبارة عن وحدات غير قابلة للتحليل تشكل البنية الأساس للنظر في وحدات التركيب للكلام العربي، وإيضاح السبب، ويلحظ من توظيف المنزلة ههنا إيماء منه إلى أن فهمه للنواة بوصفها ((مستوى تجريدي في فهم الجملة، يكون من الناحية اللغوية قبلياً عن انشاء الكلام، وتتخذ فيه الجملة نمطاً مثالياً لها وقد يظهر هذا النمط عند الاستعمال، وقد لا يظهر ويتم عن هذا النمط أو هذه البنية تحقق غمطين أساسيين سيصبحان "البنية الاعمق" وستكون هذه الأنماط ممثلة للبنية العميقة للجملة المتحققة لهذه الأنماط))^(٢٣).

ومقياس الانتقاء يجعلنا إزاء نص آخر يقول سيبويه فيه: ((ومما يختار فيه النصب لنصب الأول، ويكون الحرف الذي بين الأول والآخر، بمنزلة الواو والفاء وثم، قولك: لقيت القوم كلهم حتى عبد الله لقيته، وضربت القوم حتى زيدا وضربت أباه، وأتيت القوم أجمعين حتى زيدا مررت به، ومررت بالقوم حتى زيدا مررت به، ف"حتى" تجري مجرى الواو وثم وليست بمنزلة أما؛ لأنها إنما تكون على الكلام الذي قبلها ولا تبتدئ))^(٢٤). إنها لفظة ذكية من سيبويه حين يولي بعض الحالات عناية، بأن يكون الجوار فيها أقوى من البناء، ومن مواضعها ما أورده مع "حتى" موضعاً سبب ذلك مشابعتها لحروف العطف (الواو والفاء)، فجمع في نصّه تنوعات غمطية لها بأن (عبد الله) في المثال الأول قد حمل على اللفظ المجاور (القوم) فالعامل عمل في مضمير يربط الاسم بالمفعول المتقدّم احيالياً، ويتفق (زيد) في المثال الثاني مع (عبد الله) في الحمل على الجوار إلّا أن العامل عمل في مضمير على نحو غير مباشر بوقوعه على شيء من سببه، وحمل المفعول على المفعول المجاور في المثال الثالث، إلّا أن الفعل يعمل في مضمير على نحو غير مباشر، أي: وصل إليه عبر الحرف. أما المثال الأخير فقد حمل المفعول على موقع المجاور وليس من لفظه. ولأبي بشر شأن في الإبداع ههنا، في أنه يحفز متلقيه، بتكرار متتاليات لغوية تقتضي عدداً من الملامح البارزة، أتت في مقدمتها أن

٢١ - الكتاب ١/١٢.

٢٢ - الكتاب ٣/٣٢٨ - ٣٢٩.

٢٣ - مفهوم الجملة عند سيبويه ص ٢٢٢.

٢٤ - الكتاب ١/٩٦.

عمليات تكوينها تتجه بصفة خاصة إلى الجانب الدلالي ، فالنصوص المنظمة عن طريق النحو والدلالة تفرض نفسها على الذاكرة ، فتكون قابلة للاستمرار فيكفل التكرار - حينما يكون الطابع النبوي نفسه^(٢٥) سبيل الحفظ والاسترجاع ، وهو ما يمكننا من القول إن سيويه اعتمد استراتيجية تعليمية تقوم على التكرار.

وجدير بالتنويه أيضاً أن الأنماط التي ذكرها سيويه تتساند إلى مبدأي التسوية والتعديل ، من حيث إن المادة اللغوية واحدة (حتى) ، إلا أن ما بعدها يشتمل على الانسجام مع ما قبلها بآثارها السماعية ، عن طريق أخذ العلامة الإعرابية نفسها. فانبناء الهاجس اللغوي ، إنما يتردد إلى مرجعيات نفسية تكييفها لاختيار ترميز مشابه لما قبل الأداة (حتى) ، فالتنويغات البنائية يكسوها سيويه بعداً صوتياً لسانياً وليد الانفعال. ويبدو أن هذا الجانب مسكوت عنه في الكتاب ، وهو جانب يشخص قيم التفاعل النفسي المنطوية عليه فاعلية هذه العناصر البنائية نطقاً ، بأن تكون معيارية إيقاعية تحتفظ في عباراتها بكثير من الامتيازات الإيقاعية ، وكأن سيويه يوحى إلى نشاط لسانى يقوم على تداعي العناصر على وفق قانون طبيعى وهو قانون الحفة ، يتتبع الحركات ، يجد له مصداقية بالغة في نصوصه تمنحه أهلية الاختيار الإيقاعى المبرر نفسياً ولسانياً وسماعياً فيكون ذلك سبيله المنزلة في فهم آليات قانون الاستخفاف الذي يتم بالمجاورة.

٥ - التفسير بالمنزلة للإجمال: وفيه يوسع سيويه دائرة معالجته التحليلية للمكونات اللغوية فعلى الرغم من تطبيق المسلك التفكيكي في تحليلاته إلا أنه يجمل بالحكم بما هو بعد المنزلة ، فقد عرّج على (أم) المنقطعة مقدماً مسحاً شاملاً ، في أنها تأتي بعد الخبر ، وبعد الاستفهام ، وفي مظهر مجمل هو (الانقطاع) ، فيقول: ((ويدلك على أن هذا الآخر منقطع عن الأول ، قول الرجل: إنها لإبل ثم يقول: أم شاء يا قوم. فكما جاءت أم ههنا بعد الخبر منقطعة ، كذلك تجيء بعد الاستفهام... وبمنزلة أم ههنا قوله عز وجل: "الم (١) تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين (٢) أم يقولون افتراء"^(٢٦)... ومثل ذلك: "أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذي هو مهين"^(٢٧)

كأن فرعون قال: أفلا تبصرون أم أنتم بصراء ؛ لأنهم لو قالوا: أنت خير منه ، كان بمنزلة قولهم: نحن بصراء عنده ، وكذلك: أم أنا خير ، بمنزلة لو قال: أم أنتم بصراء^(٢٨))). ويؤكد هذا الإجمال بالاستشهاد بمواضع قرآنية لها ، زيادة في الكشف وتتميماً للبيان ؛ لأن آياته برهان صدق ينطلق منها إلى تفسير تحليلي يثبت فيه أنها تبقى منقطعة على الرغم من وقوع التغيرات

٢٥ - نعتي بالطابع النبوي ههنا نسق (حتى) مع الاسم المنصوب بعدها في المتاليات المذكورة في النص السيويهي.

٢٦ - السجدة ١ و٢.

٢٧ - الزخرف ٥١ و٥٢.

٢٨ - الكتاب ٣/١٧٣.

لحيثها، خبراً واستفهاماً. ولا يقتصر الإجمال على الأداة، بل أن بنيته التفسيرية تتسع لتشمل أنماط الكلام، وتبرز هذه المسألة في بعض الأنماط الخبرية التي قد تنزل منزلة أنماط الأمر والنهي بالارتكان إلى بنيتها العميقة المدولة عن دلالتها الإخبارية إلى دلالة طلبية، وقد عالج سيبويه هذه الازدواجية في ((باب الحروف التي تنزل منزلة الأمر والنهي؛ لأن فيها معنى الأمر والنهي)).^(٢٩) مثلاً لذلك بـ ((حسبك ينم الناس. ومثل ذلك: اتقى الله امرؤ، وفعل خيراً يثب عليه؛ لأن فيه معنى لبيتق الله امرؤ، وليفعل خيراً، وكذلك ما أشبه هذا)).^(٣٠) فقد جعل سيبويه المعنى عاملاً جوهرياً في تفسير النحو، ويشعر في وضع ضوابط تفسر نظام الإعراب من حيث إن القول بالعمل ههنا - أعني عمل العناصر اللغوية بعضها ببعض - ليس على وجه الحقيقة، بل على وجه العلاقات المطردة الثابتة بينها في تلازمها ((والقول بالعمل افتراض في التحليل الداخلي أعانهم على تفسير كثير من الظواهر في الإعراب وما يتعلق به)).^(٣١) فالعنصر الإخباري "حسبك" في قول العرب: "حسبك الحديث ينم الناس". تتحدد دلالاته بـ "اكفف"، واختيار هذه الدلالة، إنما جاء لورود العنصر الفعلي الثاني "ينم" مجزوماً؛ لعدم استغناء تحقيقه عن تحقق مضمون العنصر الأول المدلول عليه بالنمط الإخباري^(٣٢).

واخال أن علاقة التداعي بين أنواع التفسير والمنزلة يؤكد ضرورة ملاءمة المفسر للأمر المفسر، ولا يخرج عما به حاجة إلى تفسير بما يضيف جديداً يوضح الأول. ولولا ذلك لما كان هناك مسوغ لتوظيفه.

ونشير إلى أن دقة استعمال سيبويه لمفهوم المنزلة ههنا أوجب خلق بنية علمية هرمية لها قاعدتها الاستقرائية، وتقنياتها التحليلية، ووسائلها التفسيرية؛ لأن التفسير نظرية تفسر الاستقراء والتحليل أي الوصف والقانون، فيكون بذلك أسمى أهداف المشروع العلمي.

المبحث الثاني: المنزلة والتمثيل قياس في الافتراض الدلالي للكلام ومكوناته.

يصف الخطاطب العلمي، المحتوى المعرفي المبني بناءً محكماً، بأنه تقنية تفسيرية منظمة تجمع بين مفاهيم تدل على مجال البحث، والبراهين التي يتم تقديمها في إطار الظواهر المدروسة، فتكون للخطاطب العلمي وظيفة، هي نقل هذا المحتوى. ولما كان الحجاج النظري عند سيبويه يسير باتجاهين:

- الأول: في إثبات شيء على وجه الترغيب.
- الثاني: في إبطال شيء على وجه التنفير.

٢٩ - الكتاب ٣/ ١٠٠.

٣٠ - نظرية النحو العربي ص ٢٤.

٣١ - ينظر شرح الأشموني ٣/ ٥٦٩ - ٥٧٠ وعناصر النظرية النحوية ص ١٧٣ والبحث الدلالي في كتاب سيبويه ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

فإنَّ التمثيل كان واحداً من سبل الحجاج ، له مرتكزات ذهنية أولية يأتي به إيضاحاً للقاعدة وإيصالها إلى المتلقي فهو ليس برهاناً أو دليلاً قاطعاً على قدر ما يكون حجة مقنعة ، وقد خضعت المنزلة مع التمثيل لمنهجية علمية بوصفها إفرازاً دالاً للغة ، حينما صيرها سيويه موضوع بحث عقلي ينمى على أساس تجريدي فكانت وسيلة ناجحة في متابعة البحث عن المبادئ التفسيرية التي تنفذ إلى عمق الظاهرة النحوية. وقد تحكّم سيويه في تنظيم الهيكل التنفيذي للمنزلة مع التمثيل بذكر وضعين لهما :

- الأول : علمي من جهة تقرير الحقائق.

- والآخر : فني من جهة التصوير والتخييل.

فإذا كان التمثيل عنده احتجاج عقلي — وفي هدي الإدراك لحدّ (المثال) أنه : ((اللفظ الدال على المعنى المجرد في الذهن عن كلّ ما من شأنه أن يقترب به فهو النموذج أو الجزئي الذي يُذكر لإيضاح القاعدة))^(٣٢) - فحينئذ تتجلى لنا حقيقة أنّ اعتماد المقايسة الجدلية تجعل مناقشة القضايا اللغوية مناقشة علمية . ومن أبرز نصوص الكتاب التي تُفصح عن ذلك قول سيويه في باب التعجب : ((هذا باب ما يعمل عمل الفعل ، ولم يجر مجرى الفعل ولم يتمكّن تمكّنه ، وذلك قولك : ما أحسن عبد الله . زعم الخليل أنه بمنزلة قولك : شيء أحسن عبد الله ، ودخله معنى التعجب ، وهذا تمثيل ولم يُتكلم به))^(٣٣) .

إنَّ محاولة سيويه ترجمة لغة التجربة إلى لغة افتراضية في باب التعجب - أفادها من الخليل (شيء أحسن زيدا) ، - إنّما هي محاولة لتحديد العلاقات بين الظواهر اللغوية وصياغتها صياغة رمزية مجردة في تكامل خلاق بين العقل والتقنية (النظرية والواقع) . مما أنتج نحواً صورياً في صورة مخالفة للوصف الصوري الخالف ، من حيث إنّ الأخير يمتنع عن وصف المحتوى الدلالي للمقولة النحوية ، إلّا أنّ الدرس النحوي الصوري عند أبي بشر يقوم على وصف العلاقات الكامنة بين رموز اللغة - موضع الدراسة - ولكن من دون تجريد للتأويل ، فجاءت نظريته متفردة في وصف القواعد اللغوية ببعدها عن الغموض من جهة ، وإظهار الملامح الدلالية في الدراسة من جهة أخرى وهو ما يُحيل عليه قوله : "ودخله معنى التعجب" . فالتمثيل بمفهوم المنزلة عند سيويه يجعلنا أمام نوعين من النماذج اللسانية ، الثانية نماذج ممثلة - عبر معالجة علاقتها مع الشكل والمعنى - للنماذج الأولى التي تهتمّ بالتأليف بين أجزائها الأساسية ، ومر يقود التأمل فيه إلى مسألة مهمة ، هي أنّه إذا كان الكلام عند سيويه نشاطاً معرفياً ، فإنّ مقابلته بين مفهوم المنزلة ، ومفهوم تمثيل ولم يُتكلم به

٣٢ - المنزعة البديع ص ١٦٨ ، وينظر الشاهد الشعري في النقد والبلاغة (قضايا وظواهر ونماذج) ص ٣٢ .

٣٣ - الكتاب ١/ ٧٢ .

إنما جاء ضرورة لمراعاة القدرة على امتلاك اللغة واستعمالها في تحليل افتراض الممكن في البنية الأصلية لتأويل البنية المنجزة. وليس هناك أدق من تعبير "تمثيل" ولم يتكلم به. للدلالة على الطابع الافتراضي^(٣٤). لرؤية سيبويه المنهجية للبنية العميقة، ويسحب هذه الرؤية إلى أن يقدم عبرها اجتهادات دقيقة للتفريق في المستوى اللساني بين التجريد والاستعمال الخطابي، في محاولة منه للسيطرة على الظاهرة اللغوية المخترقة للقاعدة النحوية بإيجاد الحلول المناسبة بوصف تلك الحلول نتائج تمثل بالتأويل والتقدير.^(٣٥) ونجد ذلك بالأرتكان إلى موضع آخر في كتابه يكشف لنا عن منهجيته العميقة في إطار القبيلة اللغوية إذ يقول: ((... ونظير جعلهم لم آتِك ولا آتيك وما أشبهه بمنزلة الاسم في النية حتى كأنهم قالوا: لم يك إتيان، إنشاد بعض العرب قول الفرزدق: ^(٣٦)
مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة
ولاناعب إلّا بين غرابها^(٣٧)

.... لما كان الأول تستعمل فيه الباء ولا تغير المعنى، وكانت مما يلزم الأول نووها في الحرف الآخر، حتى كأنهم قد تكلموا بها في الأول، وكذلك صار "لم آتِك" بمنزلة لفظهم بـ "لم يكن إتيان"؛ لأن المعنى واحد. واعلم أن ما ينتصب في باب الفاء، قد ينتصب على غير معنى واحد... فالنصب ههنا في التمثيل، كأنك قلت: "لم يكن إتيان فأن تحدث"، والمعنى على غير ذلك، كما أن معنى علم الله لأفعلن، معنى: رزق الله^(٣٨)). إذن إيراد المنزلة لا يشترط فيها وحدة المعنى، ما يعني أنها تقترب بالمستوى الافتراضي الفعلي القائم على تصورات هيكلية للنمط المدروس.

حاول سيبويه عقد مواءمة بين الصيغتين (لم يفعل ويفعل)، أي: (لم آتِك ولا آتيك)، و(أتى وأحدث)، وهما مختلفان في الدلالة الزمنية، إلّا أن ضابطاً أساساً حل محل هذا التباعد باشتغال الفعلين (لم آتِك وأتى) في بنيتهما المجردة على الحدث وهو (الإتيان) فكان تقدير (أن) الناصبة إظهاراً للحدث ليتشاكل مع ظهور الحدث السابق (الإتيان) بوصفه موضوعاً اسمياً ويتضح ذلك في النص السابق عند قوله: ((كأنك قلت: لم يكن إتيان فأن تحدث والمعنى غير ذلك)). أي أن المعنى المراد في التمثيل هو (فحدث). فالقول بإضمار (أن) قبل الفعل، إنما هو مسألة تركيبية في البنية العميقة إلّا أنها مسألة دلالية في المنطوق الظاهر، فسيبويه يقيم تصورات التحليلية انطلاقاً من العقل الباطن وعلاقته الجدلية واللغوية بالوعي، بما أسهم في اضاءة محتوى النص والكشف عن مضمونه بتوضيح قوانين

٣٤ - ذكر الأستاذ الحلواني أن الافتراض أسلوب فقهي معروف كان عليه أبو حنيفة وشيوخه خاصة من رجال الدين وقد أفاد منه النحاة في زمن مبكر ينظر المفصل في تاريخ النحو العربي ١٦٩/١. ولعل في هذه المسألة ما يتكأ عليه سيبويه في إرسال معرفته العميقة بالفقه حينما يوظفه بجدارة في مقاربة بين التخيل والتصديق.

٣٥ - التقدير: "هو نية الشيء وتصور وجوده، وكثيراً ما يستعمل في المواطن التي يقع فيها الحذف، أو التي تحتاج فيها الكلمات إلى ما يكمل معانيها" ينظر معجم المصطلحات النحوية والصرفية ص ١٨٢.

٣٦ - ديوان الفرزدق ص ٢٣.

٣٧ - استشهد به سيبويه على حمل جر (ناعب) على معنى تقدير الباء الزائدة في (مصلحين) في النية، ينظر هامش الكتاب ٢٩/٣.

٣٨ - الكتاب ٢٩/٣ - ٣٠.

إنتاجه ؛ لإدراكه أن هناك مستوى آخر من المعنى يفارق مستوى المعنى الناتج من تفاعل العلامات اللغوية مع معاني النحو، وهو تنظير أسس له بتركيب مفهوم المنزلة مع مفهوم (تمثيل ولم يتكلم به). وهونوع من تأسيس المعرفة والعلاقة مع الخارج ولكن انطلاقاً من الداخل، إذ يتم انتقاء المناسب من الألفاظ للتعبير عن المعنى المقصود في محاولة ربط المعاني الذهنية برموز حسية حيث تتحول تلك المعاني إلى أشكال لغوية وهو ما يحيل عليه قول سيويه "لأن المعنى واحد"، و"المعنى على غير ذلك"، و"كما أن معنى"، فكانت منهجيته في التركيز على المعاني الذهنية والوجود الذهني - بوصفه مرحلة تسبق الكلام عبر قناة اللغة - طريقة واعية تعكس فيها ملكة الخيال أثراً في ترتيب المعاني وتركيبها وإحداث التناسب بينها. وبذلك لا تكون المعاني في ذهن مجرد انعكاس للمدركات، بل هي عامل جوهري في التفسير.

ويحتكم سيويه إلى موضع آخر في كتابه يكشف لنا عبره، أن سبيل التمثيل تحول إلى الجانب الدلالي من أجل البحث عن تركيب أصل للألفاظ يكون بناءها العميق، إذ يقول: ((وكان قوله : **عمرُك الله، وقعدك الله بمنزلة نشدك الله، وإن لم يتكلم بنشدك الله، ولكن زعم الخليل - رحمه الله - أن هذا تمثيل يمثل به**)^(٣٩).

فالمصادر (عمرُك الله)، و(قعدك الله) دخل على تركيبهما معنى اليمين المفهوم من التمثيل بـ"نشدك الله"، بمعنى (نشدتك الله)، فاليمين معنى كساهما به الاستعمال، وما محاولة التشبيه بين (عمرُك الله وقعدك الله)، إلتئبان أن الأصل في التركيب غير ذلك.

فالقواعد النحوية العلمية في مفهوم (تمثيل ولم يتكلم به)، بغض النظر عن مهمتها التفسيرية أو الوصفية، إنما هي محاولة لفهم الأنجاز الكلامي عن طريق الكشف عن قوانين ظواهره، وصياغتها صياغة رمزية تكفل ثبات العلاقة بين الظواهر. وقد طبق سيويه رؤيته التحليلية بربط (التمثيل) بـ(المنزلة)، فهي تماثله بوصفها أداة للكشف عن نسق منطقي تفسيري الجملة من الأنماط المنجزة نطقاً، لا تكون الغاية منها تقديم تفسير للظواهر فحسب؛ بل؛ لأنها تعبر بكيفية مرضية عن مجموعة من القواعد، فتكون وظيفتها اقتصاد المجهود الذهني وإضفاء النظام على الأنماط المنجزة.

هذا من جانب، ومن جانب آخر أن محاولة تفسير الظواهر، بالكشف عن عللها يسمح بتوسيع معرفتنا عن طريق توقع أنماط، أو التنبؤ بها، إذ يورد سيويه نماذج يحللها في ضوء منهج موازن بين البهية الأصل والبهية المستحدثة المتولدة، مرتكناً إلى السيرورة المعرفية عند المتكلم في ((باب الترقيم في الاسماء التي كل اسم منها من شيئين كانا بائنين، فضم أحدهما إلى صاحبه، فجعل اسماً واحداً بمنزلة عنتريس وحلكوك، وذلك مثل حضرموت... ومثل عمرويه، فزعم الخليل - رحمه الله - أنه

تُحذف الكلمة التي ضُمَّتْ إلى الصدر رأساً ، وقال : أراه بمنزلة الهاء^(٤٠) . ويُفهم من ذلك أنّ سيبويه ابتكر ضرباً من التجويز العقلي ، تأتت موضوعيته في الكتاب من رصف مفهوم المنزلة إلى جانب مفهوم التمثيل ، مستنداً في صواب الحكم المعياري بهما إلى اتحاد مقدمتين معياريتين :

- أولاهما : الانتقال المنظم المبني على الترابط وإمكانية البرهنة بين خطوات البحث ، أي صحة العلاقات بين خطوات البحث ، من جهة خطوات البحث العلمي والتفكير السليم .

- وثانيتهما : صحة المعلومة أي : صحة القانون أو القاعدة التي تضبط كلّ خطوة على حدة^(٤١) ((فالتفكير العلمي ينبغي أن يتصف بصواب المنهج وصواب المعلومة معاً)).

وترتفع نسبة طاقة التمثيل ؛ لاستيحاء لون آخر من الإجراءات الأسلوبية ، يُقدّم فيه سيبويه وصفاً للشروط المكوّنة للصورة ، عبر الكيفية التي يستطيع عن طريقها تخيل شخص ما من دون وجوده ، وهو تمثّل يقوم بإشباع الانتظارات المتولدة عن التعرف ، وهي قراءة ذهنية سيبويهية ليست بسيطة ، فقد نظر إلى الصورة المتخيّلة باعتبارها لحظة حية ليس لها أيّ موقع في مكان آخر إلّا في تأملات الذهن ، وتلك مسألة اخالها عميقة في تفكير سيبويه ، في محاولة تمثيل ما لا يمكن أن نراه كما يبدو في الواقع ، بما يكسب هذه الصورة طابعاً خاصاً يكشف عن مظاهر كان من الممكن أن لا يلتقطها الإدراك المباشر ، وهو ما يجعلنا نؤكد أنّ سيبويه مميّز بين الإدراك والتمثيل ، من حيث إنّ الإدراك يفترض بشكل قبلي وجود الشيء ، أمّا التمثيل فهو مرتبط استناداً إلى نمط تكونه إلى عنصر غائب غير معطى ، لا يمكن أن يظهر إلّا بوجود النشاط التمثيلي ، يدلك على ذلك قوله : ((انته يا فلان أمراً قاصداً ، إلّا أنّ هذا يجوز لك فيه إظهار الفعل ، فإنما ذكرت لك ذا ؛ لأمثلك الأول به ؛ لأنّه قد كثر في كلامهم ، حتى صار بمنزلة المثل فحذف كحذفهم ما رأيت كالיום رجلاً))^(٤٢) .

وينتج من هذه المحاولات التأليفية للعناصر المعرفية حضور شيء لم يكن موجوداً في تلك اللحظة ، بتقديم ضمانات لعناصر غير موجودة ، يعمل التمثيل على استحضارها .

إنّ براعة ما يقدّمه سيبويه ههنا باستناده إلى هذه المعارف ، أنّه يعتمد تقديم عناصر يفتح بها الوعي على الموضوع ، على الرغم من أنّها ليست عناصر داخل الوعي ، وهو ما يقود إلى تشكّل دلالي للنصوص يشرك فيه سيبويه متلقيه بتحقيق البنية التي تقدّم له من أجل الكشف عن المعنى ، وإرساء دعائم إبلاغ ما ، وهو أفق واسع تموضع ضمن منظور معرفي سيبويهية ، انطلاقاً من أنّه في أفكاره يستحضر أفكار الآخرين ، فيعتمد إلى صوغ أفكار في عالمه الذهني تنتمي إلى عالم ذهني آخر ، وتبدو معالجة سيبويه تلك في نصّه : ((ومما يضر ؛ لأنّه يفسره ما بعده ، ولا يكون في موضعه مظهر ، قول العرب : أنّه كرام قومك ، وإنّه ذاهبة أمتك ، فالهاء إضمار الحديث الذي ذكرت بعد الهاء

٤٠ - الكتاب ٢/٢٦٧ .

٤١ - التفكير العلمي في النحو ص ١٨ .

٤٢ - الكتاب ١/٢٨٤ .

، كأنه في التقدير^(٤٣). وإن كان لا يتكلم به قال: إن الأمر ذاهبة أمتك، وفاعلة فلانة، فصار هذا الكلام كله خبراً للأمر، فكذلك ما بعد هذا في موضع خبره، وأما قولهم: نعم الرجل عبد الله، فهو بمنزلة ذهب أخوه عبد الله. عمل نعم في الرجل، ولم يعمل في عبد الله، وإذا قال: عبد الله نعم الرجل. فقيل له: من هو؟ فقال: عبد الله. وإذا قال: عبد الله، فكأنه قيل له: ما شأنه؟ فقال: نعم الرجل^(٤٤). فالسؤال ههنا ليس له قيمة وصفية بقدر ما له قيمة حجاجية، ففعل السؤال يعكس هاجس اللغة التي بها الحوار، وبها السؤال، وبها الجواب فسيويوه يريد أن يضمن التفاعل واستمرارية التخاطب بينه وبين مخاطبه المتمثل افتراضاً، فأزاح التمثيل ههنا إلى المستوى الحوارى، حينما استنطق سيويوه مخاطبه المفترض من أجل الاهتداء والاسترشاد العلمى - العملي، على وفق سبل استدلالية متنوعة تجرُّ إلى الاقتناع برأي المحاور؛ ليكون ذلك أساساً يرتكز عليه سيويوه، وقد كمن عنده في بنية اللغة، ولم يكن صفة عرضية تميزت بها طروحاته، فاكست طابعين:

- الأول: الطابع الاجتماعي، وهي تقنية سيويوية بامتياز، إذ عمد إلى إبراز خطابية اللغة باستحضار مساهمات متكلميها لتحقيق أغراض معينة.
 - والآخر: الطابع الجدلي القائم على الإقناع. ولما كان الإقناع لب العملية الحجاجية، بوصفه أثراً مستقبلياً يرجى تحقيقه بعد التلفظ بالخطاب، فقد كان من بين الوسائل المستعملة في عملية الإقناع المتميز بتوظيف التفكير في ثانيا عملية التواصل.
- فثمة خيط رفيف شفاف يفصل بين الحالتين، الحالة الذهنية، وهي حالة نفسية تجعل وجود الصور في الأذهان حالة تجريدية، لم تتشكل بهيأة الدال والعبارة. والحالة الثانية، حالة الفهم، وهي حالة عقلية لحظة معرفية تصير نتيجة ارتباط اللفظ بصورة المعنى. وتمثل رؤيته هذه وقفة مهمة في تأمل الظاهرة اللغوية، وعمل النفس والعقل معاً فيها؛ لتشكيل العملية الإدراكية والمعرفية. يستقرى مما تقدم، أن الخيال لم يكن نشاطاً عقلياً فحسب؛ بل نجده عند سيويوه نشاطاً فعلاً يتكرر صوراً جديدة ويقيم علاقات بين أشياء لا يربطها في الواقع أدنى مشابهة. وبناءً على ما تقدم فقد اهتمدى سيويوه إلى جعل المنزلة تتجه نحو مخيلة الإبداع بتجاوز اللغة وحدود الواقع، فيستهدى إلى المعنى عن طريق تحريك الذهن مما يتطلب معالجة دينامية وابداعية.

المبحث الثالث: الأساس التداولي في استعمال المنزلة.

يكتمل الفضاء الاستدلالي عند سيويوه بقيام لسانيات المحاور إلى جانب لسانيات الظواهر، من حيث إن الخصائص الصورية للنماذج تجعل بعضها ذا واقعية بكفايتها التجريبية. ونوه بهذا الخصوص إلى فكرة القيمة القانونية، التي تقدم قولاً، بما له من سلطة معينة ترتبط بشكل وثيق

٤٣ - تعطي دلالة التقدير ههنا دلالة التمثيل نفسها، يدلك على ذلك قول سيويوه "وإن كان لا يتكلم به".

٤٤ - الكتاب ١٧٦/٢ - ١٧٧ وينظر ٣٠٨/٤.

بالفرضية .ومن هنا فإن مدار بحثنا سيكون ضمن المجال الخطابي الذي يتموضع فيه المتكلم والمخاطب باعتماد المنزلة ، وسيلة لتقديم الحجج ، بما يؤدي إلى نتيجة معينة ، فالحجاج بالمنزلة يتمثل في سلسلة استنتاجية (متواليات الأقوال) ، فتكون الحجة بالمنزلة في ضوء هذا الإطار عبارة عن عنصر دلالي يقدمه سيبويه لصالح عنصر دلالي آخر بمختلف هيئاته (لفظ ، أو جملة ، أو مشهد ، أو سلوك غير لفظي) .

ولما كان فعل الحجاج يفرض على المخاطب نمطاً معيناً من النتائج بوصفه الاتجاه الوحيد الذي يمكن أن يسير فيه الحوار ، فإن الأداءات الحوارية - المباشرة وغير المباشرة - جاءت في كتاب سيبويه متنوعة ، تبعاً لتغاير العلاقات التخاطبية بالإفادة من المقام ، فترى السبيل الاحتجاجي يترجح فيه العمل على النظر .

إننا نقف على هذه الحقائق الحوارية الاستدلالية في الكتاب عبر (المنزلة والسؤال) ؛ إذ يُعدّ استعمال أسلوب الاستفهام من الآليات اللغوية التوجيهية ؛ لأنها توجه المتلقي نحو محتواها ؛ للإجابة عنها . وقد أثر سيبويه أحياناً أن يعرض للمسائل في هيئة جوابات يسألها للخليل تقوية لموقفه الحجاجي بسوق كلام من يحظى باحترام علمي يقول : ((وسألته عن قوله : ما تدوم لي أدوم لك ، فقال : ليس في هذا جزء ، من قبل أن الفعل صلة لما ، فصار بمنزلة الذي ، وهو بصلته كالمصدر ، ويقع على الحين ، كأنه قال : أدوم لك دوامك لي . فما ودمت بمنزلة الدوام ، ويدلّك على أن الجزء لا يكون ههنا أنك لا تستطيع أن تستفهم بما تدوم على هذا الحد))^(٤٥) .

يستعين سيبويه بسؤال الخليل لا لمجرد الاسترشاد ، فتعزيز الجواب بسرد للأدلة تكاتل ذلك يكون رداً لا اعتراض أو أشكال قد يثيره جواب مثل (ليس في هذا جزء) ؛ لأنه بمنزلة (الدوام) . فالجزء لا يقع في الاسماء ويربطه بالاستفهام قائلاً ((أنك لا تستطيع أن تستفهم)) ؛ لأن الأصل فيه أن يدخل على الأفعال .

لقد بنى سيبويه نصه في صورة استدلالية مجتمعة إلى أوثق اجتماع ، فقد طوى مقدمات للوصول إلى نتيجة أنه لا يجوز الجزاء ههنا ، مسخراً الاستفهام كآلية لبلوغ القصد من الخطاب ، وتنبعث المنزلة من نصه لتكون بمثابة معادل موضوعي في ذهن المحاور ، لم يدور من تساؤلات في ذهن المتلقي . وتترأى مسألة تتعلق بالطبيعة المقصدية للسؤال ، أن سيبويه قد يوظف الاستفهام لا لينتظر إجابة من المتلقي ، وإنما للحصول التوجيه في مخاطبه ، قصد النظر في المسائل التي عرضها عليه ، وهي متصلة بخدمة المقصد الذي أراده ، يقول : ((وتقول : أين ترى عبد الله قائماً؟ وهل ترى زيدا ذاهباً؟ لأن هل وأين كأنك لم تذكرهما ؛ لأن ما بعدهما ابتداء ، كأنك قلت : أ ترى زيدا ذاهباً؟ وأتظن عمراً منطلقاً؟ فإن قلت : أين وأنت تريد أن تجعلها بمنزلة فيها إذا استغنى بها الابتداء^(٤٦) . قلت : أين ترى

٤٥ - الكتاب ١٠٢/٣ .

٤٦ - يعني وقعت خبراً للمبتدأ . ينظر هامش الكتاب ١٢١/١ .

زيدٌ، وأين تُرى زيداً))^(٤٧). ويعدّ هذا الإجراء بتطويع مفهوم المنزلة مع الاستفهام في بناء الخطاب وإنتاج المعرفة ضرباً من الإبداع؛ لإدراكه أنّه إزاء لغة طبيعية لا صورية.

ويشكّل قانون الإضافة أحياناً قيمة جوهرية، فنضيف عبره اصطلاح المحاور بالقيام بوظيفتين في الوقت نفسه، فيكون مرة عارضاً، ومرة معترضاً منشأ معرفة تناظرية، وطريق هذه المرتبة حمولة الاستفهام والمنزلة. فيتألق مسلك سيبويه باستعمالها جدلاً في نصه اذ يقول: ((وإن زعم زاعم أنّه يقول: مررت برجل مخالط بدنه داءً، ففرق بينه وبين المنون. قيل له: أُلست تعلم أنّ الصفة إذا كانت للأول فالتنوين وغير التنوين سواءً، إذا أردت بإسقاط التنوين معنى التنوين، نحو قولك: مررت برجل ملازم أباك، ومررت برجل ملازم أبيك، أو ملازمك. فإنه لا يجد بداً من أن يقول: نعم. وإلاّ خالف جميع العرب والنحويين، فإذا قال ذلك قلت: أفلمست تجعل هذا العمل إذا كان منوناً، وكان لشيء من سبب الأول، أو التبس به بمنزلة إذا كان للأول؟ فإنه قائل: نعم. وكأنك قلت: مررت برجل ملازم، فإذا قال ذلك، قلت له: ما بال التنوين وغير التنوين استويا حيث كانا للأول، واختلفا حيث كانا للآخر، وقد زعمت أنّه يجري عليه إذا كان للآخر كمجره إذا كان للأول...))^(٤٨). قد يقتضي الجانب التعليمي عند سيبويه الرد على بعض القضايا باستعمال بعض المقولات من قبيل "يقول - قيل - قائل... الخ" تُبنى على اعتراضات مفترضة من معترض هو نفسه العارض، فيقدم أدلته وحججه على تلك الاعتراضات مستدرجاً متلقيه إلى مجاراته وإلّا أتهم بمخالفته جميع العرب والنحويين حتى ينساق لما أراده قائلًا: (نعم). وهذه الطبيعة البنيوية للجواب الراجعة إلى طبيعة المخاطب، احتاجت من المجيب أن يقدم عدداً من المقدمات تكفي لحصول الفهم والإدراك، وهو مبدأ تحكم به مقتضيات التداول فالمقاصد لها أطرها في ذهن سيبويه، يتم توصيلها إلى المتلقي عن طريق مراعاة اللغة، وهو ما يظهر أهمية المخاطب لدى سيبويه فيتجاوز بالإسناد الوظيفة النحوية إلى المعيار التداولي، بتوظيفه لضمير المخاطب (أنت) مع الفعل (تعلم) ليحسّد به تواصلًا مع مخاطبه، وهو ما يشي بالقول إنه بنى خطابه في الكتاب على ملمح مقاصدي افترض فيه وجود متلق لرسالته، وهو ما يظهر في استعماله ضمير المخاطب (أنت) المضمر في الفعل (تعلم). وكثُر ما استعمل سيبويه الأمر من هذا الفعل؛ إذ يرى المتمعن أن خصوصية سيبويهية تأتت له من بين الصيغ الفعلية؛ لأنّ هذا الفعل يصنّف ضمن الأفعال التوجيهية، فيخرجه سيبويه عن دلالة الأمر إلى قصد إعمال الذهن عند المتلقي إليه، وتقرير الحكم له من دون ممارسات وجوب الأمر عليه، فالإخبار يكون بأسلوب العرض لا الوجوب؛ ليحدث التأثير في المتلقي وبالتالي انجاز فعل معين في مرحلة تالية إذ يقول:

٤٧ - أي: على الألفاء والإعمال، كقولك: "قائمٌ ظننتُ زيداً"، و"قائماً ظننتُ زيداً". ينظر هامش الكتاب ١٢١/١.

٤٨ - الكتاب ١٩/٢ - ٢٠.

((واعلم أنّ من العرب من يرفع سلاماً ، إذا أراد معنى المبارأة ، كما رفعوا "حنان". سمعنا بعض العرب يقول لرجل : لا تكونن مني في شيء إلا سلاماً بسلام ، أي : أمري وأمرك المبارأة والمشاركة وتركوا لفظ ما يرفع ، كما تركوا فيه لفظ ما ينصب ؛ لأنّ فيه ذلك المعنى ؛ ولأنّه بمنزلة لفظك بالفعل)).^(٤٩)

ترسم مظاهر التضامن في النص أعلاه بين فعل الأمر (اعلم) ومفهوم (المنزلة) ، بوصفهما مكونين حجاجيين تعرض عبرهما الفكرة ويشرحها بتمعن ، موجهاً إياها نحو المتلقي ، فيتحقق التواصل والانتفاع بين الطرفين. ويعي أبو بشر ما يمكن أن يوجه إلى قوانينه المبنية على الاستقراء من انتقاد فينص على وثاقها بقول : "سمعنا بعض العرب". فالنص على معايير السلامة حماية للقاعدة النحوية ، ومثله قوله : ((واعلم أنّ ناساً من العرب يجعلون هلمّ بمنزلة الأمثلة التي أخذت من الفعل يقولون : هلمّ وهلمّي وهلمّا وهلمّوا))^(٥٠).

لقد اهتدى سيويه إلى إجراء موازنات تقابلية بين المنزلة والأمر ، فكانت المنزلة رابطاً حجاجياً يسهم في ترابط منطوقات فعل الحجاج (الاستفهام والأمر) في الدفاع عن الدعوى المعروضة ؛ ليتبع هذا المحور التقابلي مخاطبات ، يعرض فيها آراءه على وفق :

- ١ - مخاطبة برهانية : يدور الكلام فيها بين معلم ومتعلم.
- ٢ - مخاطبة جدلية : يعرض فيها المتحاورين للآراء الذائعة والمشهورة ، ويحاولان الكشف عن التناقضات التي تتضمنها حلّها معاً.
- ٣ - مخاطبة مغالطية : يوهم فيها سيويه محاوره بأنّه انطلق من مقدمات يقينية ، إلّا أنّه يستبطن فيها أموراً مغايرة لما يظهره ، فيعود إلى تفنيدها.

نتائج البحث :

عول سيويه كثيراً على مفهوم (المنزلة) على نحو يلفت الانتباه ، مما جعلنا نتبع توظيفه لها عبر نصوص الكتاب لنخرج بنتائج أبرزها :

- ١ - لقد كانت المنزلة نفساً حجاجياً يتم بها الاستدلال على المسائل اللغوية.
- ٢ - تجلّى الإبداع الحقيقي السيويهي في رؤيته إلى المنزلة من منظور ، أنّها تقنية مركبة تعتمد الرمزية في ترجمة ما في التفكير الباطن وملحمه المميز للرمز أن معناه لا يتغير من جانب ، وتعتمد التداعي من جانب آخر في أنّ التثبيت للمعنى لا يستبعد إمكانية تعدده.
- ٣ - المنزلة بناء لغوي شيدّه خيال سيويه ، فتجاوزت عنده وظيفتها الأولية (المشابهة) إلى أن تكون إطاراً تقع فيه الأحداث ، فهو بها يقيم قضية بعد قضية ، ويخوض في مسائل اللغة عرضاً وتحليلاً واستنتاجاً في مقاربات بين العقل والنقل تنم عن بعد نظر ودقة ملاحظة.

٤٩ - الكتاب ١/٣٢٦ ، وينظر ١/٣٨١ و ١/٤٥٧ و ٢/١٢٤ ، و ٢/١٣٩ و ٢/٢٥٢ .

٥٠ - الكتاب ١/٢٥٢ .

٤- استعماله لمفهوم المنزلة بهدف الإقناع بناء على اقتراحات سابقة بشأن المعرفة اللغوية والإدراك المتوقع وعناصر السياق (المتكلم والمخاطب والمقام). فالتوصل إلى إدراك المقصد الحقيقي حينما يخرج القول عن معناه الحقيقي ، لا بد فيه من مراعاة هذه الأمور.

٥- لقد كانت المنزلة مفهوماً:

أ- للاكتشاف: استعان بها سيويه في تطبيق الاجراءات المحددة على النصوص اللغوية بصفة آلية مكنته من بناء نحو اللغة.

ب- للتقرير: بوصفها طريقة عملية استعملها سيويه في بيان مقبولية النحو المقترح للمادة المعروضة.

ج- لبيان القيمة: فإزاء المادة اللغوية ووصفها بأن لنا سيويه عن معرفة النحو الأليق عبر رصد ظواهره.

والحمد لله رب العالمين .

ثبت المظان.

- القرآن الكريم.

- الأسس الأستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيويه - د. أدريس مقبول - عالم الكتب الحديث - عمان - ط ١ - ٢٠٠٦ م.

- الإيضاح في علل النحو- الزجاجي ت(- ٣٣٧ هـ) - تحقيق د. مازن المبارك - دار النفائس - بيروت - ط ٤ - ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

- البحث الدلالي في كتاب سيويه - د. دلخوش جبار الله حسين - أطروحة دكتوراه - كلية الآداب - جامعة بغداد.

- التفكير العلمي في النحو (الاستقراء - التحليل - التفسير) - د. حسين خميس الملق - دار الشروق والتوزيع - عمان - الأردن - ٢٠٠٢ م.

- الخصائص - ابن جني ت(- ٣٩٢ هـ) - تحقيق: محمد علي النجار - دار الشؤون الثقافية - بغداد - ط ٤ - ١٩٩٠ م.

الخطاب والحجاج - أبو بكر العزاوي - الدار البيضاء - ط ١ - ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٧ م.

- ديوان الفرزدق - ضبط وشرح إيليا الحاوي - منشورات دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة - بيروت - لبنان - ط ١ - ١٩٨٣ م.

- سلطة الكلام وقوة الكلمات (بحث) - أبو بكر العزاوي - مجلة المناهل - العدد (٦٢) - منشورات وزارة الثقافة المغربية.

- الشاهد الشعري في النقد والبلاغة (قضايا وظواهر ونماذج) - عالم الكتب الحديث - اريد - عمان - ٢٠١٠ م.

- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك - أبو الحسن الأشموني - تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - ط ١ - ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.
- علم المعاني - د. عبد العزيز عتيق - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - ١٩٧٤م.
- عناصر النظرية النحوية في كتاب سيويو محاولة لإعادة التشكيل في ضوء الاتجاه المعجمي الوظيفي - سعيد حسن بحيري - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٨٩م.
- الكتاب - سيويو ت (١٨٠هـ) - تحقيق: عبد السلام محمد هارون - عالم الكتب - بيروت - ط ٣ - ١٤٠٣هـ.
- كليات المعرفة اللغوية عند الفلاسفة المسلمين في ضوء اللسانيات - أطروحة دكتوراه - كريم عبيد عليوي - الجامعة المستنصرية - كلية التربية - ٢٠١٢م.
- اللسانيات والبيداغوجيا نموذج النحو الوظيفي (الأسس المعرفية والديداكتيكية) - علي آيت أوشان - ط ١ - مطبعة النجاح الجديدة - دار الثقافة - الدار البيضاء - ١٩٩٨م.
- مدخل إلى علم اللغة - لوريتو تود - ترجمة: د. مصطفى التوني - منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٤م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب - ابن هشام ت (٧٦١هـ) - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٩٨م.
- المفصل في تاريخ النحو العربي - د. محمد خير الحلواني - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- مفهوم الجملة عند سيويو - د. حسن عبد الغني الأسدي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع - أبو محمد الأنصاري السجلماسي - تحقيق: عادل الغازي - مكتبة المعارف - الرباط - ط ١ - ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء - حازم القرطاجني - تحقيق: محمد حبيب الخوجة - دار الغرب الإسلامي - بيروت ط ٣ - ١٩٨٦م.
- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث - د. نهاد الموسى - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ط ١ - ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.